

ويخطئون ولا يدرون ولم لا يرجعون الى اللغة فيما أشكل عليهم حتى يخرجوا من ظلمة الشك الى نور اليقين

فصل النون

(المثبر) هو بكسر الميم لكن شاع بين العوام فتح ميمه (هو كذلك اليوم) وكذا غم ميمه (التزل) بضم تين وبالتسكين ما يهب للزبل اي القفيف والعوام يزبدونه وأو (لعلها من اشباع الضعة) وليس التزول الا مصدرأ بمعنى المبوط والحلول (النزلة) وهي الزكام يقال به نزلة والجمع نزلات والجاهلون يبرون عنها بالنزلة ويجمعونها على التوازل (تجمع كذلك الآن) وهو خطأ اذ النازلة هي الشديدة من شدائد الدهر انزل بالناس كما نفصح عنه كتب اللغة (النقرس) هو داء معروف وزيادة الياء على ما هو الشائع بين العوام خطأ لان التقريس الدليل الحاذق (النكاة) بكسر النون جمع النكته واذا ضمت النون حذفت الالف (فيقال النكت) وكثير من الناس يسمون النون ويثبتون الالف هذا بعض ما جاء في الرسالة الاولى ولعلي في فرصة ثانية آتي
بثانية الرسالتين النجف محمد رضا الشيباني

بين الفيحاء والشهباء (١)

عمران حلب القديم والحديث

كان اجدادنا يقطعون المسافة بين دمشق وحلب في تسعة ايام على الدواب وها قد اصبحنا نقطعها في ست عشرة ساعة في القطار وهو يمر من السحاب ولو وجدت الشركة داعياً قويا لقطعت اليوم في ساعة فيفطر الراكب في الصباح في الفيحاء ويتعشى في حاضرة سورية البيضاء لان المسافة تقل عن اربعمائة كيلو متر يتيسر قطع الخمسين كيلو متراً في ساعة واحدة من رياق الى حلب والخط بينهما من النوع العريض وقطاراته منتظمة اكثر من قطارات بيروت — دمشق — حوران او يانا — القدس او حيفا — دمشق — المدينة

(١) نشرنا بضعة فصول من هذه المقالات في جريدة المنبس واذا رأينا العامة من قرائها تبرموا بها عمدنا الى قطع سلسلتها قبل ايراد نمتها وزدنا عليها ما فاتنا الا اننا به وحفظنا منها ما لا علاقة له بموضوع المحلة

انبت الشبها او عاصمة سورية البيضاء ^(١) لأول مرة فرأيت فيها الصورة التي كانت
تغلبها الخيلة الا قليلاً وذلك لار القدماء والمحدثين اشبهوا الكلام عليها اكثر من
كل بلد سواها ولان الحكومات التي توالى عليها رقت من شأنها واعطت من بين البلدان
ذكرها . وناهيك ببلد كان ينزله ويمدحه ويحمن اليه مثل البصري ^(٢) والمنيني والصنوبري
وكشاجم والمصري والخفاجي وابن جبروس والوزير المغربي وابن العباس الصغري وابن
فراس والحلوي وابن سعدان وابن حرب الحايي وابن النحاس وابن ابي حصينة وابن
الحداد وابن العجمي والملك الناصر وبافوت وغيرهم من رجال الادب والعلم . وما قاله
الشعراء في مدحها يكاد يتقرب مما قالوه في اختها الفجاء فقد قال كشاجم :

ارتك ندى الغيث آثارها واخرجت الارض ازهارها
وما امنعت جارها بلدة كما امنعت حلب جارها
هي الخلد تجمع ما يشتهي فزرها فطوبى لمن زارها

وقال البصري

اقام كل ملث الودق رجاس على ديار يعلوى الشام ادراس
فيها لعلوة مصطاف ومرتبغ من بانقوسا وبانيلى وبامياس
منازل انكرت لنا بعد معرفة واوحشت من هوانا بعد ايناس
باعلو لوششت ابدت الصدود لنا وصلاً ولان لعب قلبك القاسي
هل لي سبيل الى الظهران من حلب ونشوة بين ذلك الورد والآس

وقال المنيني

كلما رحبت بنا الروض قلنا حلب قصدا وانت السبيل
فيك مرعى جيسادنا والمطايا واليهما وجيقنا والقبيل

اول من استوطن بقعة حلب ^(٣) بنو حام بن نوح وكانوا ينزلون من شط بغداد الى
مصر وقد كانت فرقة منهم فيها قيل انها تسمى الكيتا فسكنت بقعة حمص وحمزة وحلب .
وسكن حلب ابراهيم الخليل ثم جاء بعده بنو آرام بن لوط من بني سام واستولوا على تلك

(١) في قاموس الجغرافية القديمة : كان القدماء يطلقون هذا الاسم على شمالي الشام
وارض كبدوكية Cappadoce وكيلىكيا Cilicie الشرقية

(٢) الدر المنخب لابن السجدة

(٣) نخبة الانبياء في تاريخ حلب الشبها ليشوق الجرمانى .

البتة واخرجوا منها اولاد حام فسميت مملكة الآراميين والسريانيين وقسموها الى ثلاثة اقسام الاولى جزيرة الآرام وهي من الغابور الى الفرات والثانية المملكة الشامية وهي دمشق وما قرب منها والثالثة مملكة آرام صوبيا وهي الجبول من ضاحية حلب وما قرب منها

ووصفت حلب بالشهباء لان القادم اليها تراءى له يضاء من بعيد بخلاف غيرها من البلدان . ويقولون انها من بناء العالقة بدليل الكتابة التي وجدت على الحجر الاسود في الحائط بظاهر جامع القيقان داخل باب انطاكية مكتوبة بالخط الميروغليفي بلغة الكيتا او الختابين وكانت هذه الكتابة مصطلحاً عليها في ايامهم وكان اسم حلب بلغتهم هلبون وهلبة واستمرت بايديهم الى ان اتي ملوك الفراعنة من مصر وحاربوهم وملكوها منهم وهم توتمس الاول وتوتمس الثاني وسياتي ورعسيس الاول وذلك قبل التاريخ المسيحي بالفين وخمسمائة سنة الى ثلاثة آلاف سنة ثم استردها الكيتا منهم صلحاً واتي بعد ذلك ملوك بابل وحاربوا السريانيين وملكوها وذلك قبل التاريخ المسيحي بستائة وستين سنة وقد عثروا في قرية من قرى جبل سمعان قرب حلب اسمها كفر نابو على الصنم الذي كان يعبد البابلليون ومعنى نابو بلغتهم اله فيكون معنى كفر نابو قرية الاله وفي سنة ٨٦٠ ق . م حارب شلنصر الرابع الختابين وملك حلب في جملة ممالك من البلاد فظل ملوك الختابين تحت سلطة البابليين الى ان اتي ملوك العجم واستولوا على البلاد واخرجوا البابليين منها وبقيت بايديهم الى ان جاء الاسكندر واخذها منهم فصارت مسكناً للروم اليونانيين يقولون لها خلب ولا حولها خلبين باغلاء المعجمة وكانوا يقولون لها برو بالانها فيما قيل تشبه احدى مدنها ولعلها عربية من قولهم بريري لان الناظر الى البر من قلعة حلب يراه ممتداً امامه .

وجد د سلوقس نيكاثور احد ملوك الرومان قبل المسيح بثلاثمائة واثنين عشرة سنة بناء نحو النصف من مدينة حلب وبنى القلعة وامر اليهود ان يختلفوا اليها للتجارة ويقعوا بها فكثرت دورهم حتى بلغت نصف ساعة طولاً ثم استولى الروم على حلب وجعلوها كرسي مملكتهم مع سورية وانطاكية

واراد السلوقيون ان يزدوا سيفه بناء حلب ثم عدلوا موثرين لقنسرين لانها كانت اعظم والتجار يختلفون اليها اكثر فكانت تأتيا القوافل من البحر الى الفرات ومن الفرات الى البحر عن طريق قنسرين ولم يكن سيف حلب مالياً لقنسرين من

الصناعات وغيرها حتى ان تجار اوربا كانت تأتي اليها من السويدية في طريق انطاكية ويأتي اليها تجار العجم من الفرات بطريق بالس (مسكنة) ولم تكن الطريق في ذلك الوقت سالكة الى حلب الا من يقصد الذهاب الى منبج (هيرا بلس)

وقفسرين هي التي نسب اليها احد اجناد الشام الخمسة وهي جند فلسطين وجند الاردن وجند دمشق وجند حمص وجند قفسرين والجند هنا بمثابة الفيلق في ايامنا بتجمع فيه الجند ويقبضون أعطياتهم قال ابن جبير: ان قفسرين بلدة شهيرة في الزمان لكنها خربت وعادت كأن لم تغن بالامس فلم يبق الا آثارها الدراسة ورسومها الطامسة ولكن قراها منتظمة لانها على محرت عظيم من البصر عر ضاوطولا وقد فسر ياقوت سبب خرابها ووصف موقعها فقال انها كورة بالشام منها حلب فتحت على يد ابي عبيدة بن الجراح سنة ١٢ هـ وكانت مدينة بينها وبين حلب مرحلة من جهة حمص بقرب العواصم وبعضهم يدخل قفسرين في العواصم وما زالت عامرة أهلة الى ان كانت سنة ٣٥١ وغلبت الروم على مدينة حلب وقتلت جميع من كانت يربضها فخاف اهل قفسرين ونفروا في البلاد فلم يكن بها في القرن السادس الا خان ينزله القوافل وعشار السلطان وغريضة صغيرة وذكر ابن جبير الخانات من حلب الى قفسرين الى باقدين ان خانات هذا الطريق كانوا القلاع امتناعا وحصانة وابوابها حديد وهي من الوثاقفة في غابة

والعواصم^(١) حصون موانع وولاية تحيط بها بين حلب وانطاكية وقصبتها انطاكية كان قد بناها قوم واعتصموا بها من الاعداء واكثرها في الجبال فسميت بذلك وربادخل في هذا ثغور المصيصة (Moboueste) وطرسوس (Antradius) وتلك النواحي ولم تزل قفسرين وكورها مضمومة الى حمص حتى كان زمان يزيد بن معاوية فجعل قفسرين وانطاكية ومنبج وذواتها جندا فلما استخفاف الرشيد افرد قفسرين بكورها فصيرها جندا وافرد منبج ودولوك ورعيان وقورس وانطاكية وتيزين وما بين ذلك من الحصون فساها العواصم لان المسلمين كانوا يعتصمون بها فتعصمهم وتندفعهم من العدو اذا انصرفوا من غزروهم وخرجوا من الثغر وجعل مدينة العواصم منبج واسكنها عبد الملك ابن صالح في سنة ١٧٣ فبنى فيها ابنية مشهورة ذكرها النجاشي في مدح سيف الدولة فقال :
لقد اوحشت ارض الشام طرا سلبت ربوعها ثوب البهاء

نفس والعواصم منك عشر فيوجد طيب ذلك سيفه الهواء
جدد الملك كبرو يس الشرواني ما انهدم من سور حلب وقت حرب العجم وعمر
بالقرب من باب انطاكية بيتاً للنار لانه كان ممن يعبدونها فاشتعلت حلب اذ ذلك على
اربعة انواع من الديانات وهي اليهودية والنصرانية وعبدة الاوثان وعبدة النار ثم دخل
الاسلام وكانت حلب في المذاهب الاسلامية تختلف باختلاف الدول عليها شأنها في
ذلك شأن دمشق فتارة توالي عليها واصحابه واخرى توالي غيره

ولما اراد بدر الدولة ابو الربيع سليمان ابن عبد الجبار بن ارنؤي صاحب حلب بناء
اول مدرسة للشافعية في هذه المدينة لم يمكنه الحلبيون اذ كان الغالب عليهم حينئذ
التشييع وكان اهل حلب كلهم سنية حنفية حتى قدم شخص الى حلب فصار فيهم شيعة
وشافعية وهو الشريف ابو ابراهيم الممدوح

وقد اتى صلاح الدين يوسف بن ايوب وخلفاؤه على التشيع في حلب وكان
المؤذنون في جوامعها يؤذنون بحمي على خير العمل وحاول السلجوقيون الاثراك مرار
التقضاء على التشيع في هذه الديار فلم يوفق لذلك الا الملك الناصر صلاح الدين كما ضرب
على التشيع في مصر وكان على اشده فيها على عهد الناطعيين بحيث لا يكاد عالم مصري
يصرح بمذهبه اذ ذلك ولا يزال الى اليوم اثر من آثار التشيع بادياً على حائط صحن
المدفن الذي في سفح جبل الجوشن بظاهر الشهباء وفيه ذكر الائمة الاثني عشرية وكان
حكم بني حمدان وهم شيعة من جملة الاسباب التي نشرت التشيع في حلب وجوارها
وابتدأت حكومتهم سنة ٣٣٣ هـ وانقرضت سنة ٣٨١ وفي سنة ١٤١ ظهر سيف حلب
قوم يقال لهم الراوندية خرجوا بحلب وحيران وكانوا يزعمون انهم بمنزلة الملائكة وصعدوا
تلا بحلب فيما قالوا ولبسوا ثياباً من حرير وطاروا منه فكسروا وهلكوا

واقعد كان حلب كما كان لغيرها من امهات المدن الاسلامية عرامة وشدة في التعصب
على المخالفين ويهد في سيئات الجامدين قلوبهم على الشهاب السهروردي الحكيم الالهي
العالم فقد حاورهم فبزم في حضرة صاحب حلب الملك الظاهر غازي^(١) بن الملك الناصر
صلاح الدين يوسف فلم يروا واسطة لاهلاكه احسن من الاستشفاع بوالد ملكهم
فكتبوا اليه محضراً وبالغوا في عاقبة امر السهروردي حتى صدر الامر الى الملك الظاهر
بقتل هذا الفيلسوف فاختر ان يلقى الله بمنع الطعام والشراب وعنه وهلك سيف قلعة

حلب وقبره فيها بلغني معروف الى اليوم ناعياً على الدهر تلاعب اولئك المتلاعبين بالدين والمتعصبين لاهواء نفوسهم زارياً على عصور الظلمات ولو كره السفطائيون عاداً ذلك سبباً لصلاح المين وان كانت اعمال هذا كلها حسنات وايامه غرراً محجلات . قضى السهروردي ولم يتجاوز السادسة والثلاثين من عمره . ومثله من حكم قضت عليه اهواء معاصره . ولو عمر ملأ الدنيا علماً وعقلاً

وبعد فقد كان شأن حلب في العهد الاسلامي شأن سائر مدن الشام دخلت في حكم بني أمية ووليها عامل ثم انتقلت الى ابدس بن بني العباس ووليها صالح بن علي سنة سبع وثلاثين ومائة فنزل حلب وابنى بها خارج المدينة من شرقيها قصرًا بقربة يقال لها بطيلاس بالقرب من النيرب وآثاره باقية ذكرها البخري وغيره في اشعارهم وقد كان جماعة من بني أمية اختاروا المقام بناحية حلب وآثروها على دمشق ومنهم هشام ابن عبد الملك انتقل الى الرصافة *Sergiopolis* وسكنها واتخذها منزلاً لصحة تربتها ومنهم عمر بن عبد العزيز اقام بخامسة واختارها منزلاً ومنهم مسلمة بن عبد الملك سكن بالناعورة وابنى بها قصرًا بالحجر الصلد الاسود

وما زال عمال بني العباس يقولون من امر حلب ما يتولون من سائر بلاد الخلافة حتى ولى المعتصم اشتاس التركي الشام جميعاً والجزيرة ومصر وجاء القرامطة حلب سنة ٢٩٠ فقاتلهم اهلها ودخل الاخشيدي حلب وافسد اصحابه في جميع النواحي وقطعوا الاشجار التي كانت ظاهراً حلب كانت كثيرة جداً وقيل انها كانت من اكثر المدن شجراً . قال ابن الخطيب : وكانت حلب كثيرة الاشجار وكان موضع بالقوسا (احد احيائها اليوم) اشجار كثيرة كما ذكر ابن الملا في تاريخه ايضاً فقد كان الاخشيدي اذا نزل حلب يقطع اشجارها ويحارمها فاذا اخذها ورجع الى مصر جاء سيف الدولة بن حمدان وفعل ذلك الفعل وتكرر ذلك معها حتى فني ما بها من الشجر ولذلك لما امر الملك الموفق بدشج بفسيف قصر القلعة امر ان يقطع له من الاخشاب من بلاد دمشق فقطعت وجيء بها الى حلب في غاية الطول ونهاية الغلظ وقيل ان بعض الاخشاب المذكورة كانت من بعلبك ولما جاء الصليبيون حلب سنة ١١٨ اخذوا يقطعون اشجارها من جملة ما اتوه من تخريبها . وحداثتها المشجرة اليوم قليلة ليس بينها وبين ضخامة المدينة نسبة

وتشرب حلب من نهر قويق وهو نهر ينبعث ^(١) على ستة اميال من دابق ثم يجري الى

حلب ثمانية عشر ميلاً ثم إلى قنسرين عشرين ميلاً ثم إلى المرج الأحمر اثني عشر ميلاً ثم يصب في بحيرة المطبخ وذلك في زمن الشتاء وقال ياقوت ابن مخرجه من قرية تدعى سبتات وقيل ان مخرجه من شاذر قرية على ستة أميال من دابق ثم يمر سيفه رساتيق حلب ثمانية عشر ميلاً إلى حلب ثم يمتد إلى قنسرين اثني عشر ميلاً ثم إلى المرج الأحمر اثني عشر ميلاً ثم يفيض في اجمة هناك فمن مخرجه إلى مغيضة اثنا عشر واربعون ميلاً وماؤه اعذب ماء واصحها فيما قال ياقوت الا انه في الصيف ينشف فلا يبقى الا زور قليلة واما في الشتاء فهو حسن المنظر طيب الخبز وقد وصفه شعراء حلب بما الحقوه بنهر الكوثر ومن امثال عوام بغداد يفرح بفلس مطلي من لم يرد ديناراً وقد احسن القيسراني في وصفه قوله :

رأيت نهر قوبق فساء في ما رأيت
فلو علمت وأسقيت ماءه مارويت
ولو بكيت عليه بقدره ما اشتفيت

واسم قوبق القديم شالوس^(١) وصوب تسميته بقوبق ان رجلاً من رؤساء عشائر التركمان في القرن الرابع للهجرة اسمه قوبق انا انشأ لهذا النهر عدة سدود ليجري جريته حسنة فاطلق اسمه على النهر من ذاك الحين وارباب الرقاعة يسمونه ابا الحسن وهو ابن جيس اليوم من قرية اسمها چاغديق من اعمال عينتاب ويجري إلى قرية تبعد عن حلب ثلاث ساعات اسمها حيلان ويصب نحو ثلثه إلى حلب تجري إليه فيه عدة بنايع وجداول من قضاء عينتاب وكليس وينضم إليه نبع عين التل وعين البيضاء المنبجستين من جوار حلب وفي الشتاء تجري بقاءه إلى خان طومان وتل طومان من اعمال جبل سمعان وتكون من مياهه بحيرة تحف بحرارة الصيف .

قال ابو فراس :

الشام لا بلد الجزيرة لذقي وقوبق لا ماء الفرات مثالي
وايت مرتين الفؤاد بمنيج السوداء لا بالركة البيضاء

ويرى بعضهم ان نهر الساجور الذي كان اجراء ارغون إلى حلب ليزيد به نهر قوبق اذا اضيف إلى ماء قوبق تختص أكثر ضواحي حلب . واصل نهر الساجور من عينتاب وتجتمع إليه عيون أخرى من بلاد تل باشر ثم ينتهي إلى الفرات ويصب فيه ويرى

آخرون ان خير ذريعة لتكشير ماء حلب اقتطاع ترعة من الفرات وهو من حلب على ١٨ ساعة ولا يمنع انخفاض مجراه عن الانتفاع به في حلب على علوها وكيف كان الحال ففى زاد عمرات الشبهاء يفكر ابناؤها في تكشير ماها

وبعد فقد كانت الحرب سمجلا بين سيف الدولة ابن حمدان والروم منذ استقرت له ولاية حلب سنة ٣٣٦ الى حين وفاته سنة ٣٥٦ فكان يغزوه ويغزوه فتحرب حلب ثم تعمر واستولوا عليها سنة ٣٥١ وحرقها الدمشق وعاث فيها بالقتل والنهب والسبي وبعد تسعة ايام رحل عنها ولم تكن حكومة سيف الدولة مباركة على حلب بقدر ماصورها شعراؤه الذين كان يصدق عليهم هباء، ليقطع السفنهم وبشغلهم عنه ومن جملة ما قرأناه من مظالمه ان ابا الحصين علي بن عبد الملك الرقي ولي قضاء حلب وكان غلاما فاذا مات انسان اخذ تركته لسيف الدولة وقال: كل من هلك فليسيف الدولة ما ترك

استولى الروم على معظم البلاد المجاورة كمرعش واذنة وطرسوس الا ان حلب لم يستولوا عليها وكذلك استولى الصليبيون على كثير من عمالاتها مثل انطاكية والسويدية ولم يقدر بودوين احد ملوكهم ان يستولي عليها سنة ١١٢٤ م وما زالت حالتها حال بلاد الشام على عهد الدولة الايوبية حتى وافاها التتر وحاصروها سنة ٦٥٨ حصارا شديدا وقتلوا من اهلها كثيرا وقتل هولاء كو اهل حارم عن آخرهم وسبي النساء وخرب اسوار قلعتهما عن آخرها وجاء قازان التتري سنة ٦٩٩ فحاصر حلب وخربها وقتل واسر كثيرا من اهلها وجاء تيمورلنك سنة ٨٠٣ واجرى في حلب ما اجراه في دمشق من الفظائع والنهب والقتل والسبي وفي سنة ٨٦٣ وقع الطاعون بحلب فاحصي من مات بها وبضواحيها فاربى على مائتها الف انسان وكادت تخرب بالفتن الاهلية سنة ٨٩٦ عن آخرها كتب ابن بطلان الى هلال بن الحسن الصايي في نحو سنة ٤٤٠ هـ في دولة بني مرداس حلب فقال انها بلد سورت بحجر ابيض وفيه ستة ابواب وفي جانب السور قلعة في اهلها مسجد وكنستان وفي البلد جامع وست بيع وبهارستان صغير والفقهاء يفتون على مذهب الامامية وشرب اهل البلد من صهاريج مملوءة بماء المطر وعلى بابها نهر يعرف بقويق يمد في الشتاء وينضب في الصيف وفي الوسط دار علوة صاحبة البحرى وهو بلد قليل الفواكه والبقول والنبذ ومن عجائب حلب ان في قيسارية البر عشرين دكانا للوكلاء يبيعون فيها كل يوم مئتا قدره عشرون الف دينار مشتر ذلك منذ عشرين سنة والى الآن وما في حلب موضع خراب اصلا

قلنا وقد اشتهرت حلب في عامة ادوارها باتساع تجارها لوقوعها في طريق القوافل وتوسطها من بلاد الروم والجزيرة والعراق والشام ولذلك لم تُخط صناعة البزاو الاقشة حتى في ايامنا هذه كما انحطت في معظم بلدان الشام لان لها من بلاد الروم مصارف اتفق فيها سلعاها ويعتقد اهل الروم الخبير في تجار الشبهاء فلا يعاملون غيرهم للالف والمادة وذكر المقدسي ان من التجارات التي كانت تحمل من حلب القطن والياب والاشنان والمنغرة

قال ياقوت ولاهل حلب عناية باصلاح انفسهم وتثخير الاموال فقلما ترى من ناشتها من لم يقبل اخلاق آبائه في مثل ذلك فلذلك كان فيها بيوتات قديمة معروفة بالثروة وبنوارثونها ويحافظون على قديمهم بخلاف سائر البلدان . هذا ما وصف به الحلبيون منذ نحو سبعة قرون وهي اخلاق لم تبرح متسلسلة في اعقابهم الى يوم الناس هذا ولذلك صرح ان يقال ان الحلبيين اغنى من العمشيين والبيروتيين والحويين والحمصيين والطرابلسيين والنايليين والمقدسيين والكاوين واليافاوين والحيفاوين

وصف ابن حوقل^(١) مدينة حلب في القرن الرابع فقال انها مدينة جند ففسرين وكانت عاصمة جداً خاصة باهلها كثيرة الخيرات كان لها سور من حجارة لم يغن عنهم من العدو شيئاً تغرب الروم جامعا وسبي ذراري اهلها واحرقها وكان بها قلعة غير طائلة ولا حسنة العارة فلجأ اليها قوم من اهلها فنجوا وهلك بها من المتاع والجهات للغزاة واهل البلد وسبوا وقتل من اهل سوادها ما في اعدائه ارماض من سمعه ووهن على الاسلام واهله وكان لها اسواق حسنة وحمامات وفنادق ومحال وعراض فسيحة وهي الآن كالمناسكة ولم تنزل اسعارهم في الاغذية وجميع المآكل قديماً واسعة رخيصة وعليهم الآن للروم في كل سنة قانون يودونه وضريبة تسفخرج من كل دار وضريبة معلومة وكانهم معهم في هدنة وليست وان كانت احوالها متماسكة وامورها رضية بحال جزء من عشرين جزءاً مما كانت عليه من قديم اوقاتها وصالف ايامها

ووصف ابن جبير حلب في القرن السادس فقال : ان هذا البلد موضوعه ضخم جداً حقل التركيب يدع الحسن واسع الاسواق كبيرها متصلة بالانتظام مستطيلة تخرج من سباط صنعة الى سباط صنعة اخرى الى ان تفرغ من جميع الصناعات المدنية وكلها مسقف بالخشب فسكانها في ظلال وارقة فكل سوقه بالقييد الابصار حسناً وتوقف

المستوفز تعجباً وأما فيسار بنتها خديفة بستان نظافة وجمالاً مطيقة بالجامع المكرم لا يتشوق الجالس فيها مرأى سواها ولو كان من الرائي الرياضية قد اتصل السباط خزانة واحدة وتخلها شرف خشبية بدعة النقش وتفتت كلها حوائث لجاء منظرها أجمل منظر وكل سباط منها يتصل بباب من ابواب الجامع المكرم

وقصارى القول فإن عمران حلب القديم يشبه عمرانها الحديث الا قليلاً ومن اعظم ما يجعل الشبه كثيراً بين ادوارها المختلفة ذلك الحجر الابيض المثين الذي يفي الخليون به بيوتهم وحوائثهم. وخاناتهم وتكاد تظن الشوارع والحارات والمساكن قطعة واحدة لانها كلها بملاحظة معمولة من صنف واحد من الحجارة تنبسط له النفس بخلاف الحجر الاسود الكتيب المستعمل في البناء بدمشق وحمص وغيرهما

وقد اصاب حلب من مقوضات دعائم العمران في القرون الاخيرة ما اصاب غيرها من بلدان سورية ومنها الزلازل والادبثة التي انتشرت فيها عتوب استيلاء السلطان سليم العثماني عليها سنة ٩٢٢ بعد وقعة دامت ست ساعات بين جنده الموف اذ ذاك من ثمانين الفا وثمانمائة^(١) مدفع وجند الغوري البركسي سلطان مصر والشام الذي كان ضعيف التدبير قليل النظام وذلك في مكان يعرف بمرج دابق على بضع ساعات من حلب ونهض الخليون ففتحوا ابواب مدينتهم للقائهم بخيري بك والي حلب من قبل الجراكسة كما تلقاه اهل دمشق كذلك لان الناس كانوا استنوا في مصر والشام من حكم الجراكسة وعلفوا الآمال الطويلة بدولة ابن عثمان الغنية القوية وقد استولى السلطان سليم على مليوني ذهب ومعدات كثيرة كان اذخرها الغوري في خزائنه حلب ليقوى بها على محاربة العثمانيين والاستيلاء على القسطنطينية منهم فعجل الله باهلاك الغوري وانقض الناس من حوله وابق السلطان العثماني البلاد على حالتها الاولى من حيث الادارة في حلب وخطب فيها له لاول مرة ملقباً بمخادم الحرمين الشريفين

والظاهر ما في ايدينا من تواريخ حلب انها لم ترتق ارتفاعاً محموداً على عهد العثمانيين بعد ان كانت في عهد العباسيين تضاهي بعظمتها بغداد والموصل على قول شيخ الرتبة وكان جيش الانكشارية (بيكي جري) وغيره من اكبر ادوات التغريب ينفذون العمران ولا تسف المصائب السماوية ولم ينظم لها امر بحكومة الاقطاعات والنهب الا عندما جرى تأليف الولايات على النسق المتعارف اليوم في السلطنة سنة ١٢٨٣ هـ.

فدخلت الحكومة في طور قليل من النظام واصبحت الحال تحسن باحسان الولاة الذين يتولونها فاذا كانوا اغفة قادرين على الادارة يزيد عمران حلب والا فيقف او يتقهقر ومن ساعد على عمرانها الحديث وتنظيمها وفتح الشوارع الجديدة فيها على الاصول المدنية جميل باشا ورائف باشا .

ويكفي في تقدير غنى حلب في القرون الوسطى والقرون الحديثة ايراد دخلها من الجباية والعشور وغيرها والمقابلة بينها . هذا مع غلاء النقود اذ ذلك ورخصها في الايام الاخيرة . فقد كان ارتفاع حلب ^(١) سنة تسع وستائة في الايام الظاهرية دون البلاد الخارجة عنها والضياح والاعمال ستة آلاف الف وتسعمائة الف واربعاً وثمانين ألفاً وخمسمائة درهم وذكر ابن شداد تفصيل هذه الارتفاعات من الزكوات والعشور وضرائب البقول والفواكه والخيل والجمال والبقر والغنم والرقيق والصناعات والغلات والخطب والفحم والخبث والحديد والتنب . وغير ذلك من الحكورة والموارث وغيرها فكانت في بعض النسخ ٧٤٣٠٥٠٠٠ درهم

وقال ياقوت ^(٢) ومسافة ما يد ما لكها في ايام الملك العزيز من المشرق الى المغرب مسيرة خمسة ايام ومن الجنوب الى الشمال مثل ذلك وفيها ثمانمائة وثيف وعشرون قرية ملك لاهلها ليس للسلطان فيها الا مقاطعات يسيرة ونحو مائتين وثيف قرية مشتركة بين الرعية والسلطان وهي بعد ذلك تقوم برزق خمسة آلاف فارس مزاحمي العلة موسع عليهم . قال الوزير الاكرم ابن التفتلي وزير صاحبها لياقوت الحموي: لولم يقع اسراف في خواص الامراء وجماعة من اعيان المغاريد لقامت بارزاق سبعة آلاف فارس لان فيها من الطواشيعة المغاريد ما يزيد على الف فارس يحصل للواحد منهم في العام من عشرة آلاف درهم الى خمسة عشر الف درهم ويمكن ان يستخدم من فضلات خواص الامراء الف فارس وفي اعمالها احدى وعشرون قلعة يقام بذخائرها وارزاق تحفظ عليها خارجاً عن جميع ما ذكرناه وهو جملة اخرى يسيرة ثم يرتفع بعد ذلك كله من فضلات الاقطاعات الخاصة بالسلطان من سائر الجبايات الى قلعتها هنباً وعجوباً ما يقارب في كل يوم عشرة آلاف درهم وقد ارتفع اليها في العام الماضي وهو سنة ٦٢٥ من جهة واحدة وهي دار الزكاة التي يجبي فيها العشور من الافرنج والزكاة من المسلمين وحق البيع سبعمائة الف درهم وهذا مع العدل الكامل والرفق الشامل بحيث لا يرى

ففيها متظام ولا متهم وهذا من بركة العدل وحسن النية اهـ وقد بلغ دخل حلب سنة ١٣٣٢
شرقية من ضريبة الاملاك والبذل العسكري والاغنام والجمال والاعشار وغيرها ٤٠٦٤٠٨٦٦
غرشاً صحيحاً ودخل لواء حلب كله ٢٩٤١٦٧٠٤١٦ غرشاً وبلغ دخل ولاية حلب
كلها في تلك السنة ويدخل في ذلك لواء آمرعش واورفة ١٠٧٠١٦٣٣٣٢ قروش
صحيحة انفق الحكومة على جندها وموظفيها وغير ذلك ٦٦٧١٥٦٣٤٤ غرشاً هذا
مع ان الجباية لعهدنا فاحشة والضرائب متعددة اكثر من الادوار السالفة . ويقدر
قيمة الدراهم اليوم بثلاثة قروش صحيحة
غنى حلب ولغتها ومعاهدها وتدليها

لما كانت حلب في طريق قوافل الهند أصبحت ممتازة بموقعها منذ القديم بين البلدان
ومعدودة قاعدة شمالي سورية وقد كان الافرنج ولا يزالون فيها اكثر عددا مما هم في
دمشق لانها اقرب منفذ لاتصال الشرق بالغرب فكان تجارهم يأتونها من ثغر السويديّة
يقجرون مع اهلها وبقا يضيون محصولاتهم بمحصولاتها ومحصولات الشرق ولا سيما الهند
وفارس والعراق

وكانت فرنسا والبندقية^(١) أول البلاد الأوروبية التي تجرت مع حلب واقامت معها الصلات المهمة والمكاتب التجارية ثم جاء الانكليز في القرن السادس عشر وتلامهم الهولنديون ولا يزال الافرنج فيها الى اليوم يقربون من عدد اخوانهم نزلاء بيروت وبعضهم تناسلوا في حلب وارثاوها وتأثلوا وعدوا كأنهم من اهلها . وقد كان البساقفة يعبرون بالبحار يأخذونه من حلب بكميات وافرة كما كانوا يجلبون منها الشب والقطن

وامم ما اصاب حلب من الزلزال زلزلة سنة ١١٧٠ م على عهد نور الدين محمود بن زنكي
فقام يرميها وقلعتها وقد اصبحت يزلزل مدمرة في قرون مختلفة وآخرها زلزال سنة ١٨٢٣
الذي خرب به ثلثاها وزلزال سنة ١٨٣٠ وانهضت حلب على عهد حكم ابراهيم باشا المصري
من سنة ١٨٣١ الى ١٨٤٠ م اذ قد جعلها معسكرا له

لا يتجاوز سكان حلب في التعداد الرسمي الـ ١٣٠ ألفاً وربما كانوا في الحقيقة نحو ١٨٠ ألفاً. أكثر من المسلمين والبيساقون روم ويهود وأرمن وموارنة وكاثوليك وبروتستانت ولكل طائفة من الطوائف الغير الاسلامية عدة مدارس ابتدائية .

والمسيحيون متشبعون بالعربية أكثر من اخوانهم المسلمين لانهم أكثر عرافة في العلم بفضل مدارسهم الطائفية والأفرنجية . اما المسلمون فان المتعلمين منهم يتعلمون على الطريقة التركية ليعيشوا عالة على التوظف ولذلك ترى الشعوب العربي يقل في حلب مع ان اهلها كلهم يتكلمون بالعربية اللهم الا بضع مئات من الاتراك الاناضوليين الذين ينزلونها للتجارة او الموظفون الذين يأتونها لخدمة الحكومة

وليس للمسلمين مدارس اهلية راقية والمدارس التي تصبغ الامورين هي المدرسة السلطانية وكانت اعدادية من قبل فقلبوا اسمها كما قلبوا اسم كثير من اسماء المكاتب الاعدادية في امهات المدن العثمانية والمكتب الرشدي العسكري ومكتب الصنائع وفيها ٩٢ كتاباً ومدرسة ابتدائية اميرية و ٣٩ مدرسة لغير المسلمين و ٣٢ مدرسة دينية وبعضها عامر و ٣ مكاتب للاناث و ٧ خزائن كتب عامة كان فيها ١٦٠٠٠ مغزل ونحو ٨٠٠٠ دكان ومخزن و ١١٧ خاناً و ١٠٦ احياء و ١٦٩ جامعاً و ١٨٢ مسجداً و ١٩ نكية وزاوية و ٤٠ حماماً و ٢١ كنيسة وديراً و ٤ بيع و ٢٩ طاحون ماء و ١٢٨ طاحوناً على الدواب و ٣٠٠٠ نول و ١١٣ قرناً و ٨ مدايق و ٢٧ معمل مناديل وزهاء ١٠٠ قهوة و ١٢ معمل صابون و ٥٠ خماره و ١٨٨٥ حديقة

وحلب يمزج بين البلاد العربية والتركية وعلى نحو اربعين كيلومتراً من شمالي حلب يقل المتكلمون بالعربية وتصبح البلاد تركية محضة وان كان من افضية حلب القريبة من لا يعرفون غير التركية من الفلاحين اسكنتهم الحكومة هناك مهاجرين من بلاد بعيدة . فمعظم افضية لواء حلب يتكلم اهلها بالتركية كما ان اهالي لواءي اورفة ومرعش يتكلمون بالتركية وبعض العشائر في لواء مرعش يتكلمون بالكردية وفي بعض الافضية جراكسة يتكلمون بالجركية وهم مهاجرون وبعض السكان في بعض الافضية من التركمان والعرب

ويمكن ان نلخص من ذلك ان جهات الغرب من حلب كلهم عرب وهي عبارة عن افضية ادلب وحارم وجسر الشغور ما عدا بعض قرى من اعمال حارم سكانها جركس وسكان العمق اكراذ ومن الشمال من حلب الى قبيل كليس عرب ونفكلم بعض قرام بالتركية والعربية ومن كليس الى اورفة فصاعداً كل السكان اتراك ومن الجهة الشرقية جميع السكان عرب وكل قضاء الباب في الشرق الشمالي من حلب عرب وفيهم قليل جداً من التركمان والأتراك والاكراد والجرأكسة وكل قضاء منبج جركس نزلاء حديثاً

وفهم عرب وقضاء الرقة عرب وقضاء المعرة في الجنوب عرب كله . ويقال ان اهالي قضاء عينتاب يتكلمون بالتركية وقضاء كابس وان تكلم اهل المركز بالتركية فان النواحي يتكلم اهلها بالعربية والتركية والكردية

واهل قضاء اسكندرونة يتكلمون على الاكثر بالتركية والارمنية واهل انطاكية منهم من يتكلم بالتركية ومنهم من يتكلم بالعربية فيصح ان يقال فيهم ان تركيهم تعرب وهربيهم تترك واهالي ادلب كلهم عرب وكذلك اهالي حارم وفي بعض قرى هذا القضاء مهاجرون من الاتراك والجرس والتاتار واهالي قضاء يلان يتكلمون بالتركية واهل اقصية المعرة والباب وجبل سمعان واهالي مركز قضاء جسر الشغور وناحية المضيق عرب وناحية اردو اترك واكثر اهالي قضاء منبج من مهاجري الجراكسة واهل قضاء الرقة عرب واهالي قضاء حران منهم من يتكلم بالعربية ومنهم بالكردية .

هذه هي اللغة الغالبة على حلب واعمالها وليس اليوم في هذه المدينة ما يستحق الذكر من اعمال العمران سوى بناياتها الجديدة التي اقيمت الاقليل على مثال ابنية الامم الراقية مفردة بعضها عن بعض ليغطيها الهواء والشمس بعيدة عن الطرق العامة لان السكان من عاداتهم اليوم ان يؤخروا بناء بيوتهم وحوالياتهم ما امكن ويعطوا فضل اراضيهم للشارع حتى يكبر بحسب الخريطة التي تردها البلدية ولذلك تجد الاحياء الجديدة مثل العزيزية والجميلية فسحة عريضة كأنها بنيت في يوم واحد او هي لرجل واحد وكان من ذلك ان صرفت واردات البلدية القليلة وهي لا تتجاوز الستة آلاف ليرة مساهمة على تنظيف المدينة وتطهيرها وتويرها

ولقد كنا نود ان نرى في الشهداء نهضة محلية راقية لما صرف في اهلها من الذكاء والمضاء والحساب لادفعول ولكن رأينا الخاصة الذين يرجي منهم ان يسيروا في المقدمة متشاغلين بغير مصلحة انفسهم ومن كان على خطتهم من المتأدبين وأهمل التيل من الكبراء وارباب النفوذ والثراء ممن يتوفرون على اهنات الفقراء واجتياح الصقراء والبيضاء وربما صمغ اكثر هذه الشكوى ولكن لا حيلة فبين انهجزوا الحكومة وعرفوا كيف يصرفونها على ما يشاؤون . وعندنا ان يترك الطعن جانباً وتعارف الطبقة المستنيرة الى الطبقة النابضة على زمام البلاد من الاعيان المومنين ليتسنى بذلك النهوض بالشعب المسكين وتثقيف عقول الناشئة وما دام الاختلاف مستحكماً بين المنورين والمومنين فالغريب يجدون سبيلاً الى التلاعب ويتعلق ذلك مع رغائبهم

نحن نعتقد انه ربما كان من ارباب اليسار من جمعوا ثرواتهم الطائلة من طرق غير مشروعة في حكومة عبد الحميد وقبله ولكننا نعتقد ان منهم من جمعوها بالانفاق كأن لنوالى سني الجذب - والخبث قدام بدوم سنين كثيرة في حلب وعملها - فياً فيها الفلاح باكتفاً شاكياً الى ذلك الوجبه يتخلى له عن كل ما يملك من عقار وارض ليعوله وعياله ويدفع عنه الضرائب والعشور التي يتعذر عليه جداً في غير سني الخير ان يقوم بها حق القيام

وسواء جمع ارباب اليسار ما يملكون بالطرق القانونية المشروعة او من السحت الخبيث وارهساق الفلاح والعبث بمصلحة الفقير فان من ملك ملك ومن هلك هلك وليس من وسيلة الآن لنزع ما ملكوا من ايديهم فالاجب ان تحسن سياستهم في الجملة للارتفاع من اموالهم تصرف على اعمال الخير وانشاء الكتاتيب والمدارس . وما نظن اكثرهم الا قانعين من الطبقة المستنيرة بالسكوت عما مضى . وماتم في الغابر هو ولا جرم نتيجة ضعف الحكومة وفسادها ولو عرفت منذ القديم كيف تحسن سياسة الرعية وتدفع الناس بعضهم عن بعض لما اختلف النظام ولرضي الخاص والعام .

نحن نعلم ان اموال الاغنياء هنا بل وفي كل مكان تصرف على الاكثر بما لا يرضى عنه الادب والاخلاق وان ابناء الطبقة الوسطى امضى عزائم واجمل اخلاقاً ولكن ليست المهارة في التقدير بعيد بل المهارة بدخول المجتمع واصلاح ما امكن من مفاسده ومهلكاته . ان في التباعد جفاء وفي الاجتماع حسن نفهم وكم من عدوك يتحكك به ينقلب على الزمن صديقاً وكم من صديق يكون بابتعادك عنه عقوقاً .

ان ما رأيناه من حلب وهي ما هي من عظمتها وغناها وما نقل لنا وشهدناه من تنوع ضرور الفجور والملاهي فيها ابكنا على قاعدة من اهم قواعد الشام وكف عظيم من كهوف الاسلام ودعانا الى ان ننسب القصور للعالمين والجاهلين على السواء فلا يخلص من تبعه هذا الانحلال عاقل واللوم يلحق العالم قبل ان يتال الجاهل

تالله لو صرفت حلب ربع ما تنفق في سبيل اللهو والموبقات على المعارف والآداب الرفاعة لاصبحت في بضع سنين ذات مدنية راقية . وبعد اليس من العار ان تكون نابلس في فلسطين وهي مشهورة بانتماسها في حماة الجهالة وصغيرة بعدد نفوسها اقرب الى التعلم من حلب دخل من ابناء اعيانها بضعة وعشرون ليدرسوا في مدارس الاستانة العالية وبضعة قصدوا ديار الغرب ولا نرى الا عدداً قليلاً من الحليين يقصدون

الاصحانة ليجرحوا في مدارسها ليجي منهم اتكاليون من عباد الوظائف وعبيد الحكومة ولا ترى في القرب من ابلاتهم سوى اثنين او ثلاثة فقط وبهذا نرجو النهوض وتوسل باسباب الارتقاء

أليس من العار ان يكون بلد يبلغ بمساحته ضعف مساحة دمشق وفي غناه التجاري من اهم المدن التجارية في البلاد العثمانية وفي طيب مناخه من اجود البقاع وفي مضاء سكانه مثلاً مشهوراً ثم لا تشهد فيه صحيفة عربية واحدة تصدر باسم رجل مسلم من اهله يعرف طرق الاصلاح ويحسن المطالبة به . ولا مدرسة ابتدائية اهلية تعلم ابن الفلاح والتاجر والصانع ما يلزمه في دينه ودينه ولا نادياً ولا جمعية ولا شركة تنفع في التعارف والتعاطف والتكافل .

ان معظم البلاد استفادت من نعمة الدستور فهبت لتعلم وتفكر في الاصلاح ولكن حلب على ما ظهر لنا في مؤخرة البلدان التي لم تدرك حتى الآن ما يراد بالحري . ان تلك الطائفة التي تعتز اليوم باموالها وبنيتها سيجي عليها زمن تدثرهم وماجمت ومن جمعت لهم ان لم تعالج ذلك الضعف الميت بقوة العلم والاخلاق ويستغفروا ربنا غيرها في ارضهم ممن يصلحها شأنه في خليقته منذ دعى الارض ورفع السماء

قلعة حلب

اصاب الآثار القديمة في هذه المدينة ما اصاب آثار غيرها من البلدان فلم يبق منها الا انقاض نبيها بغالاة السلف في تجويد البناء واشكاله ومن اهم هذه العاديات قلعة حلب فهي الخم ماسيف الديار الحلبية من القلاع بنيت وسط المدينة على اكمة رجا كانت صناعية ومحيط بها خندق عظيم كان القدماء يملأونه ماء ليعمذر الوصول اليها الا من مدخلها وهذا من احسن ما يتصور العقل وبقل ان مدينة بروا *Berwa* اي حلب القديمة كانت كلها مبنية في هذه القلعة وقد تعاورتها الابدي بالبناء في قرون مختلفة وظلت مسكونة الى سنة ١٨٢٢ م ايام خربت بالزلازل

يسير الداخل الى القلعة على جسر يدعى اقيم فوق الخندق فيبلغ برجاً خارجاً جعل في واجهته انواع من نوافذ الحديد البديع قيل انه من عهد الملك الظاهر لما وجد في مدخله من كتابة تاريخها سنة ٦٠٥ مع بعض الآيات الكريمة وقد بذل بعض علماء الآثار قدراً وافراً من المال لقلع تلك النوافذ واخذ حديدتها واجمارها الى متاحف اور باقم لتقبل الحكومة ولا تزال تحفر الدخول الى القلعة الا برخصة لانها جعلت فيها مستودعاً

لبعض المهمات العسكرية وفيه دهليز القلعة المخرج عدة كتابات ونقوش بارزة على الحجر ومنها صورة غمر بن علي يمين الباب ويساره من اجمل ما زيرت ايدي الناشرين على الصخور فاذا دخل المرء من الباب وجد ساحة وآثار عدة شوارع وركاماً من الانقاض بعضها انقاض جامع ومأذنة وأخرى انقاض اروقة وأخرى محال لرصد العدو وفي الوسط صهريج كبير يستقي منه الى اليوم ماء عذب والغالب انه من ماء المطر . والناظر الى حلب من قلعتها يدرك عظمتها ويقبل له برها الفسيح البديع ولا سيما زمن الربيع وقد اكنست السهول والجبال بحللها السندسية

قال ابن الشحنة اول من بنى قلعة حلب سلوقس الذي بنى مدينة حلب وهي على تل مشرف على المدينة وعليها سور محكم البناء وفيه وسطها بئر ينزل اليها بئانة وخمس وعشرين درجة قد هندست تحت الارض ويقال لها الآن ساطورة وكان بها دير للتصاري ويقال ان في اساسها ثمانية آلاف عمود ولما ملك كسرى حلب بنى بها مواضع ولما فتحها ابو عبيدة في ايام عمر بن الخطاب رضي الله عنه رم اسوارها لانها خربت بسبب زلزلة كانت اصابتها قبل الفتح فاخرت اسوار البلدة والقلعة

ولما استولى تغفور ملك الروم على حلب سنة ٣٥١ امتنعت عليه القلعة ولم يكن لها يومئذ سور محكم ومن ذلك الوقت اهتم الملوك بعمارة القلعة وتحصينها فبنى سيف الدولة وابنه سعيد الدولة وبنو مرداس وعماد الدين ابي سنقر وابنه عماد الدين زنكي وابنه نور الدين محمود وابنه الملك الصالح ولما ملك الملك الظاهر غياث الدين غازي حصنها وحسنها وبنى بها مصنعاً للماء ومخارن الغلات وبنى سفح تلها بالحجر المرقل وبنى بها الى مكانه الآن وبنى على الباب برجين لم يبن مثلها قط وجعل لها ثلاثة ابواب حديد ولما سلم التاتار القلعة اخربها واخرب اسوارها واخذ ما كان بها من الدخائر والزردخانات والمجانيق ولم يبقوا بها مكاناً للسكنى واستمرت خراباً الى ان جددت عمارتها في ايام الملك الاشرف خليل بن قلاوون ولما اتي التتر تلك اخرب اسوار البلد والقلعة واحرقها واستمرت خراباً الى ان جاء الامير سيف الدين جكم نائباً من قبل الملك الناصر فرج بربوق فأمر ببناء القلعة والزم الناس بالعمل في الخندق وازال التراب منه حتى انه عمل بنفسه واستعمل وجوه الناس بحيث كان الامراء يحملون الاجار على ظهورهم

هذا اجمل تاريخ لهذه القلعة البديعة اكبر قلاع سورية واهمها الى القرن العاشر . وما نظن العثمانيين جددوا فيها شيئاً بعد الى يومنا هذا وقد وصفها ابن جببر في رحلته فقال

ومن كمال خلاصتها المسترطة في حصانة القلاع ان الماء بها نابع وقد صنع عليه جبان فعا
 ينبعان ماء فلا تخاف الظأ ابد الدهر والطعام يصهر فيها الدهر كله وليس في مشروط
 الحصانة اهم ولا آكد من هاتين الخلتين ويطيف بهذين الجبان المذكورين سوران
 حصينتان من الجانب الذي ينظر للبلد ويعترض دونها خندق لا يكاد البصر يبلغ مدى
 عمقه والماء ينبع فيه وشأن هذه القلعة في الحصانة اعظم من ان نفتيها الى اوصفها وسورها
 الاعلى كله ابراج منتظمة فيها العاللي المنيفة والقصاب المشرفة قد تفتحت كلها طيقانا
 وكل برج منها مسكون وداخلها المساكن السلطانية والمنازل الرفيعة الملوكية اهـ . وهذا
 اخصر وصف للقلعة زمن عزها وعمرانها ايام كان بها « يضرب المثل في الحسن والحصانة
 لان مدينة حلب في وطاء من الارض وفي وسط ذلك الوطاء جبل عال مدور صحيح
 التدوير مهندم بتراب صبح به تدويره والقلعة مبنية في رأسه ولها خندق عظيم وصل
 بحفره الى الماء وفي وسط هذه القلعة تصل الى الماء المعين وفيها جامع وميدان وبساتين
 ودور كثيرة »

وما احرى هذا الحصن بقول المجتري من قصيدة يصف بها ايوان كسرى :

لو تراه علمت ان الليالي	جعلت فيه مأتماً بعد عرس
وهو ينيبك عن عجائب قوم	لا يشاب البيان فيهم بلبس
ليس يدري اصنع انس لجن	سكنوه ام صنع جن لانس
عمرت للسرور دهر آفصارت	للتعزية رباهم والتأسي
فلها ان أعينها بدموع	موقفات على الصباية حبس
ذاك عندي وليست الدار داري	باقتراب منها ولا الجنس جنسي

زراعة حلب

ليس في ظاهر حلب من الحدائق الانيقة ما يبلغ نحو عشر ما في ظاهر دمشق على كثرة
 الماء وجودة التربة هنا . اما في اعمالها فتنبت اكثر الحبوب وتجود معظم الثمار ولولا قلّة
 الري التي تحدث بعض السنين بقلّة الغابات وتدرجها نحو الفناء وما يعيش في ارباضها
 من الجراد في معظم السنين لكانت زراعتها كزراعة بلاد دمشق واكثر ومع هذا فان
 اقضية دمشق لا تعادل اقضية حلب في زيتونها قال المهلبى وتجلب من كور حلب وضياعها
 ما يجمع جميع الغلات النفيسة فان بلدة معرة مصرين وجبل السماق بلد التين والزيتون
 والزبيب والفسق والسماق والحبة الخضراء وقال ابن شداد وفي بعض ضياع حلب ما

يجمع عشرين صنفاً من الغلات . وقال ابن الشحنة وما اختصت به حلب ما ورد النصبي الذي يستخرج بالباب من اعمالها فانه لا يوجد في الدنيا مثله بحيث لا يقاربه شيء مما يجلب الى الديار المصرية من الشام مع ان المجلوب من دمشق عند المصريين في غاية العظمة بحيث يصفه اطباؤهم للمرضى فيقولون ما ورد شامي . وقال ياقوت ويزرع في اراضيها القطن والسمسم والبطيخ والخيار والدخن والكروم والذرة والشمش والتين والتفاح عذبا لا يسقى الا بما انطر ويحيى مع ذلك رخصاً غصاً رويًا يفوق ما يسقى بالمياه والسج . وقال ابن حوقل ان ما حول معرة نسر من القرى اعذاء ليس بجميع نواحيها الا جار ولا عين وكذلك اكثر ما بجميع جند قنسرين اعذاء ومياههم من السما وقال ابن جببر في بلاد المعرة وهي سواد كلها بشجر الزيتون والتين والفسق وانواع الفواكه ويتصل التفاف بسايتا وانتظام قراها مسيرة يومين وهي من اخصب بلاد الله واكثرها ارزاقاً

ويصدر من حبوبها اليوم^(١) الحنطة والشعير والارز والقطن والحصص والعنبر والبقل وبذر الكتان والابنسون والسمسم والخردل والكرزرة اليابسة والماش والقصب والدخان وغير ذلك ومن الثمار الفستق الجيد في افضية حلب وقلة الروم وعينتاب ويحود الزيتون كل الجودة في افضية حلب واداب وكليس وحارم وعينتاب وانطاكية وجسر الشفر ونزيب ويحود الليمون والبرنقال بين انطاكية واسكندرونة وفي حلب والباب يحود الزمان وفي اريحا الكرز والوشنة كما يحود في حلب واعمالها انواع الثمار والبقول على اختلاف شروها

ويحود التوت في افضية انطاكية واسكندرونة وبيلان وحارم بكثرة فيكون منه حرير جيد وفي افضية الولاية ولواء مرعش مثل افضية جسر الشفر وانطاكية وبيلان وكليس واسكندرونة وقلة الروم من اعمال اورفة تخرج غابات كثيرة كالبوط والدردار والصوبر والعفص والدقلى وغيرها وفي جبال البستان تخرج على اطراف الانهار والجداول اشجار برية من الحور والصفصاف وفي السهول عرق السوس في داخل الولاية يكثر التين والعنب والاحاص والدراق وفي السواحل الليمون والبرنقال والكماد والطورنج ويكي دنيا وفي هذه الولاية يكثر البصل والثوم ويحود البطيخ الاحمر «الجلس» من وراء العقول وتزرع البطاطا في بعض الانحاء كما ان الكمأة تسخرج من باديتها وسهولها

هواء حلب وصحتها

يبلغ ارتفاع حلب ثمانمائة متر عن سطح البحر وبالنظر لتعرضها لحرارة الشمس من جهاتها الأربع وعبث الرياح التي لا يحول دونها حائل من الأشجار أو غيرها كان بردها شديداً وحرها على تلك النسبة فهو أوفها أقل اعتدالاً من هواء دمشق يزيد في ذلك قلة مياهها في الدور كما هي في دور الفيحاء المشهورة بقاعاتها واحواضها . فهواء حلب جاف معتدل للغاية ولولا بناء منازلها بالحجر لضافت انقاس سكانها أيام القيظ وقد تبلغ درجة الحرارة الأربعين أو أكثر بالميزان المثوي وقد نزلت الحرارة في الشتاء الماضي إلى تحت الصفر بخمس وعشرين درجة .

ومع ذلك تجد لاهل حلب رجالاً ونساءً من صحة الاجسام ونفسرة الوجوه ما لا تكاد تجد مثله في معظم البلاد الداخلية من سورية . قال المهلبى واما اهل حلب فعم احسن الناس وجوهاً واجساماً والاعلى على الوانهم الدرية والحمرية والسمرة وعيونهم سود وشهل . قلنا اما البياض الناصع فهو كثير للغاية ويزيده رونقاً في بعض النساء تلك الحبة التي تخرج على الاعلى في الوجوه وتترك أثراً في الحدود بحجم الريال يزيد روتقاً وحسناً

وهذه الحبة يقال لها في هذه البلاد حبة حلب وهناك يقال لها حبة السنة وليست في الحقيقة خاصة باهل حلب بل يشترك فيها سكان الشرق حتى بلاد فارس . واختلف العلماء في تعليلها فقال قوم انها تخرج لخاصية في ماء حلب ولو صحت هذه النظرية^(١) لكان اهل عينتاب وروم قلعة (قلعة الروم) وبيرو جك (البيرة) واورفة (الرها) وخر بوط وديار بكر والموصل ودير الزور وبغداد ناجين منها والحال انها تصيبهم كما تصيب الحلبيين حذو القذة بالقذة . وقال قوم انها منبعثة من الماء ولو كانت الامر كذلك لاقتضى من ذلك ان تطلع في سكان القرى البعيدة ساعتمين عن حلب على انك لا ترى لها فيهم أثراً

واغلب الاطباء على انها من الامراض السارية ودليلهم على ذلك ان ابراهيم باشا المصري لما قدم حلب كان في حملته رجل من قرية بشامون في لبنان فاصيب بالمرض المذكورة وقبل ان يبرأ منها عاد الى بلاده فعادى بها اهل قريته ويقال انها لا تزال إلى اليوم موجودة ويقال لها الحبة البشامونية

والحقيقة ان امر هذه القرحة لم يبرح سرّاً غامضاً على الاطباء ومرضاً جلدباً يصاب به الاطفال في الطفولية وبعض الغرباء الذين ينزلون حلب في الكبر ويقبضون فيها سنة وقد ينجون منها واهراضها عبارة عن بثور تظهر في اي طرف كان من اطراف الجسم ويكون في الوجه او اليد او الرجل غالباً حتى اذا شفيت بدون ان ينشأ عنها وجمع نترك آثاراً وندوباً بيضاء ويصاب بها الغرباء والوطنيون على السواء كما يصاب بها الكلاب والقطة وكثيراً ما تخرج بعد ان يغادر المرء البلاد بزمان

متنزهات حلب

تتغير اسماء المتنزهات كما تتغير اسماء البلدان بتغير الازمان فمن متنزهات حلب القديمة «اشمونيث» قال ياقوت انها عين في ظاهر حلب في قلبها تسقي بستاناً يقال له الجوهرى والله فضل منها شيء صب في قوبق ذكره منصور بن مسلم بن ابي الخرجين يتشوق حلب ايا سائق الاطعان من ارض جوشن سلت ونلت الخصب حيث ترود الى ابن عنها تشف ما بي من الجوى فلم يشف ما بي عاج وزرود هل العوجان الغمر صاف لوارد وهل خضبت باخلوق مدود وهل عين اشمونيث تجري كمقلتي عليها وهل ظل الجنان مديد اذا مرضت ودت بان تراهها لها دون اكحال الأساة يرود ومن جرب الدنيا على سوء فعلها يعيب ذم العيش وهو حميد اذا لم تجد ما تنغيه فخص بها غمار السرور ام الطلاب ولود «بابلا» قرية كبيرة بظاهر حلب بينها نحو ميل وكانت عامرة أهلة في ايام ياقوت قال الوزير ابو القاسم بن المغربي

حن قلبي الى معالم بابلا
مطلب اللهو والهوى وكناس
حيث شطافويق مسرح طرفي
والاسامي مؤانسي واليني

«بطياس» قال ياقوت اهل حلب كالمجموع بن علي ان بطياس قرية من باب حلب بين النيرب وبابلا كان بها قصر لعلي بن عبد الملك بن صالح امير حلب وقد خربت القرية والقصر قال البحري

يا برق اسفر عن قويق فطرقني
عن مثبت الورد المعصفر صبغه
حلب فأعلى القصر من بطياس
في كل ضاحية وبجني الآس

ارض اذا استوحشت ثم اتيتها حشدت علي فاكثرت ابناي
وقال ايضا

نظرت وضمت جانبي التفانة وما التفت المشتاق الا لينظرا
الى ارجواني من البرق كلما ثمر طوي السحاب تعصفرا
بضي غماما فوق بطياس واضحا ببض وروضا تحت بطياس اخضرا
وقد كانت محبوبا الي لوانه اضاء غزا لا عند بطياس احورا

« تل ماسح » قرية من نواحي حلب ذكرها امرو القيس في شعره
بذكرها اوطناتها تل ماسح منازلها من بربعيس وميسرا
« جوشن » جبل مطل على حلب في غربيها في سفحه مقابر ومشاهد للشيعة وقد اكثر
شعراء حلب من ذكره جدا قتال منصور ابن مسلم بن ابي الخرجين الفخوسي الحلبي
من قصيدة

عسى مورد من سفح جوشن نافع فاني الى تلك الموارد ظمآن
وما كل طير ظنه المرء كائن يحوم عليه للعقيقة برهان
وقال ابن سنان الخفاجي

يا برق طالع من ثنية جوشن حلبا وحي صكرية من اهلها
واسأله هل حمل التسميم تحية منها فان هبوه من رسلها
ولقد رأيت فهل رأيت كوقفة للبين يشفع هجرها في وصلها
قال الخفاجي ومن هذا الجبل كان يحمل النحاس الاحمر وهو معدنه « حربنوش »
قرية من قرى الجزر من نواحي حلب قال حمدان بن عبد الرحيم الجزري
الاهل الى حث المطايا اليكم وشم خزامى حربنوش سبيل
« دابق » قرية قرب حلب من اعمال عزاز بينها وبين حلب اربعة فراسخ عندها
مرج معشب تزمه كان ينزله بنو مروان اذا غزوا الصائفة الى ثغر المصيصة وبقرية قرب
اخرى يقال لها دوبيق قال عيسى بن سعدان الحلبي

ناجوك من اقصى الحجاز وليتهم ناجوك ما بين الأحص ودابق
أمفارقى حلب وطيب نسيمها يهنيكم ان الرقاد مفارقى
والله ما خلق التسميم بارضكم الا طربت من التسميم الخافق
واذا الجدوب تحطرت انفاسها من سفح جوشن كان اول ناشق

« الدارين » هو ربض الدارين بحلب ذكره عيسى بن سعدان الحلبي في مواضع من شعره فقال :

يا مسرحة الدارين اية مسرحة مالت ذوائبها علي تحننا
ارمى بواديك الغمام ولا عنا نفس الخزني الحارثي وجوشنا
أمنفرين الوحش من ايلاتكم حباً بظليكم امسا او حسنا
اشتاقه والاعوجية دونه ويصدني عنه الصوارم والقنا

وقال الاعشي :

وكأس كمين الديك باكرت خدرها بفتيات صدق والنواقيس تضرب
سلاف كان الزعفران وعند ما يصفق في ناجودها ثم يقطب
لها ارج في البيت عال كأنه الم به من بحر دارين اركب

« دير حشيان » بنواحي حلب من العواصم ذكره حمدان بن عبد الرحيم فقال :

يا لطف نفسي مما اكابده ان لاح برق من دير حشيان
وان بدت نفحة من الجانب الـ غربي فاضت غروب اجفاني
وما سمعت الحمام في فنن الا وخلت الحمام فاجاني
ماء نضت مذغت عنكم بدلاً حاشا وكلاما القدر من شاني
كيف سلوي ارضاً نعت بها ام كيف انسي اهلي وجيراني
لا خلق رقت لي معالمها ولا اجنني انهار بطنان
لكن زماني بالجزر اذكرفي طيب زماني به فأبكاني

« دير رمانين » يعرف أيضاً بدير السابان وهو بين حلب وانطاكية مطل على بقعة تعرف بسرمد وهو دير حسن كبير وكان خراباً في القرن السادس وآثاره باقية وفيه يقول الشاعر :

الف المنام بدير رومانينا للروض الفا والمدام حزينا
ولكأس والابريق يعمل دهره وتراه يجني الآس والنسرينا

« دير عمان » بنواحي حلب وتفسيره بالسريانية دير الجماعة قال فيه حمدان بن عبد الرحيم الحلبي :

دير عمان ودير سابان محجن غرامي وزدن اشجاني
اذا تذكرت منها زمناً قضيت في عرام ريعاني

ومر أبو فراس بن ابي الفرج البزاعي فقال مرثلاً :

قد مررنا بالدير ديز عمانا ووجدناه دائراً فشحاننا
ورأينا منازلنا وطلولنا دارصا ولم نر السكنا
وارتدنا الآثار من كان فيها قبل تفنيهم الخطوب عيانا
فبكينا فيه وكان علينا لا عليه لما بكينا بكانا
لست أنسى يادير وقتنا في لك وان اورثني النسيانا
من اناس حلوك دهرنا نخلو ك وامسوا قد عطولك الانا
فرقتهم يد الخطوب فاصبح ت خراباً من بعدهم اسيانا
وكذا شيمة الليالي تميت الـ حي منا وتهدم البيانا
حر باما الذي لقينا من الدهر ر وما ذا من خطبها قددهانا
نحن في غفلة بها وغرور وورانا من الردي ما وورانا
« دير مرقس » من نواحي الجزر قال حمدان بن عبد الرحيم يذكره :

الاهل الى حث المطايا اليكم وشم خزاي حريش صليل
وهل غفلات الدهر في دير مرقس تعود وظل اللهو فيه ظليل
اذا ذكرت لغاتها النفس عندهم تلاقي عليها وجدة وعويل
بلاد بها امسى الهوى غير انفي اميل مع الاقدار حيث تميل

وذكر ابن الشحنة في تاريخ حلب طرقاً صالحاً من متزهات حلب فقال انها كثيرة
فمنها ما يقصد في ايام الاحياء والمواسم ويستوي فيه الخالص والعام كباب المقام واخلاً
وخارجاً يجعل فيه فيالات^(١) وتعمل فيه انواع الفنون وتعقد به الحلق لارباب الصنائع
وبساع فيه انواع المأكـل وكذلك خارج باب النيرب وخارج باب الفرج الى ارض الماتين
والجديدة وخارج باب النصر وظاهر بانقوسا وظاهر باب قنسرين ماداً الى جسر الانصاري .
واما ما يقصد في سائر الايام والافاق التي تخطر للمتزهيين فاولها من جهة القبلة الابيض
ثم مرج الخالدي وعين مباركة وعين اشونيث وهي المعروفة بعين اشمول وارض بطياس
والسعددي وهو قضاء فياح تجري فيه انهر منشعبة من نهر واحد بجافيتها مروج خضر
وبها من الزهر المختاب ما لا يبلغه الوصف ثم الجوهرى وهو بستان قديم وصفه الشعراء والمبلغاه
ومنها الانصاري وجسر المـ المعروف احدهما بحقل ابن رافع والغيبض وجندبات وزاوية عباس
(١) الفيال بالكسر والفتح لعبة للصبيان يخشون الشيء في التراب ثم يفتسمونه

ويقولون في ايها هو

ومنها ارض الخوازي وطواحين السلطان وشهد الزرازي وبستان شمس لولو وجبل
جوشن والقنات وجسر الطواشي وبستان البقعة وبستان العجمي والكهف وبستان
الجزيرة والحيشي وقيصر ومرجة الفرايين وجسر باب انطاكية وجسر باب الجنان
وجنينة المهتدار المعروفة آخر وقت باين نجيح وبستان الوزير وجبهة الانكليس ومنها
بابلي وهي قرية قريبة متصلة ارضها بارض بانقوسا بها عدة جواسق وبحرات وجنينات
وغير ذلك . ومنها قرينيا وجبل البغتي والمزايزة والميدان الاخضر ومشهد سيدي فارس
وقسطل الحاجب وبعادين ومرجة اغليك وارض باصفراء وعين التل والارض المسماة
بالجوز سميت به لاشجار جوز عظام كثيرة الظل على شاطئها الممر ممتدة الى حيلان وحوش
البدوية وهو مكان فياح على نشر من الارض بنيت فيه الشيخ والقيصوم والقرنفل
والصعتر ومنها الخناقية والكنتف الازرق والارض المحدبة وجورة الاسقف التي بها
بستان النصيبي وتجاه مرج السحولية ثم جنينة عبيد والتاهورة وارض الحلبة ورأس
الطابق والنهر يات وهي مسافة يومين من اول المسجلة الى قل السلطان .

والعنوبري الشاعر قصيدة طويلة في وصف بعض متنزهات حلب وقراها
القرية جاء فيها

حبذا البآت باء آ	ت قوبق ورباها
بانقوساها بها	باهي الميام حين باها
ويا صفرا وباب	لا وبابا (؟) مثلي وتاها
لاقلي صحراء نافر (؟)	قل شوقي لا فلاها
لا سلا اجيال باسا	بين قلبي لا سلاها
وياسلين فلييه	بخ ركابي من بفاها
والى باشقيلشا	ذو التناهي يتناهي
وبعاذين فواها	لبعاذين وواها
بين نهر وقتاة	قد تلتها وتلاها
ومجاري برك يجل	و مومي مجتلاها
ورياض تلتني آ	مالنا في ملتقاما
زاد اعلاها علوا	جولتنا لما علاها
وازدعت برج الي الحا	رث حسنا وازدهاها

وأطبت مشرف الحصد سن اشتياقاً وأطباها
 وارى المنية فازت كل نفس بمنها
 اذ هو ايمى العوجان السالب النفس هوها
 ومقيلي بركة الله بل وسبيات رحاها
 بركة تربتها الكا فور والدر حصاها
 كم غرافي طربي حيه ثابها لما غراها
 اذ تلا مطبخ الحيه ثاب منها مشثواها
 بمروج اللهو القت غير لناقي عصاها
 وبمغنى الكامل ا- تنكملت نفسي منهاها
 وغرت ذا الجوهرى ا- حزن غيثاً وغراها
 كلاً الراموسة الح- ناء ربي وكلاها
 وجزى الجنات بال- عدى بنعمى وجزاها
 وفدى البستان من فا رس صب وفداها
 وغرت ذا الجوهرى ا- حزن محلولاً غراها
 واذكروا دار السلبا نية اليوم اذ كراها
 حيث عجبنا فحوها العي س تباري سيفي براها
 وصفا العافية المو سومة الوصف صفاها
 فعي في معنى اسمهاخذ وبحدو وكفهاها
 وصلاسطحي واحوا ضي خليلي صلاها
 وردا ساحة صهرى جبي على سوق رداها
 وامزجا الراح بماد منه اولاً تمرجاها
 حلب بدر دجى ا- جعها الزهر قراها

للرحلة صلة